مجلة الآداب، م٢٨، ع٢، ص ص ٢٠١-٢١٤، جامعة الملك سعود، الرياض ٢٠١٦م/ ١٤٣٧هـ)

نقد النقد مقاربة إبستيمولوجية

عمر زرفاوي*، فريد زغلامي

* أستاذ مساعد، كلية اللغة العربية، جامعة تبسه

(قدم للنشر في ٢٧/ ١٢/ ١٤٣٦هـ؛ وقبل في ٦/ ٤/ ١٤٣٧هـ)

الكلمات المفتاحية: نقد النقد، نقد النقد النظري، نقد النقد التطبيقي، مساءلة، تأثيل.

ملخص البحث: نقد النقد حقل معرفي، وإن لم تتحدد معالمه بعد، تكشّف إلى الوجود، مصطلحا ومفهوما وممارسة، في ثمانينيات القرن الماضي، يسعى إلى مراجعة النقد الأدبي، بشقيه النظري والتطبيقي، وتحليله وفهمه، عن طريق النظر في مرجعياته وخلفياته المعرفية والفكرية، ومبادئه، وآلياته وأدواته الإجرائية، وغاياته، ومصطلحاته، ولغته النقدية ... .

هذه المقاربة هي دراسة إبستيمولوجية تتطرق إلى نقد النقد من خلال البحث في مفهومه، وإشكالاته المصطلحية، لتعرّج على فروعه واهتماماته النقدية، وتقف عند أهم وظائفه وغاياته التي يصبو إلى تحقيقها. متغيية رفع بعض الغموض واللّبس الذي لا يزال يحيط بهذا الحقل بسبب قلة الدراسات والأبحاث المقدّمة فيه.

يدرك الكثير من الباحثين صعوبة الإقبال على خطاب نقد النقد تنظيرا وممارسة، وتتأتى هذه الصعوبة من مناحي متعددة؛ فإذا كان النقد ليس كما يقال: إنه «علم مكتسب يمكن لكائن من كان الإبحار بين أمواجه دون شروط مسبقة»[1]، يحتاج مرتاده إلى باع طويل في المعرفة والفن والذوق... فإن ناقد النقد«

(١) محمد بن طلال الرشيد : «لغة النقد بحاجة إلى ناقد»، مجلة علامات في النقد، م١٣، ع٤٩، النادي الأدبي الثقافي بجدة، السعودية، سبتمبر ٢٠٠٣، ص ٣٨١.

يفترض فيه أن يكون أكثر معرفة من الناقد»[٢]، هذا من جهة، ثم إن نقد النقد حقل معرفي تكَشَّفَ إلى الوجود متأخراً، في ثمانينيات القرن الماضي، ومازال لحدِّ اليوم سوى« مشروع يصعب تحديده وتعريف وظيفته ومقاصده»[٣]، ومصطلحاته ومفاهيمه وآلياته الإجرائية، من جهة أخرى.

كما أن الوعي بأهمية نقد النقد ودوره في الحياة النقدية لا يشدُّ إلا مجموعة قليلة من الأكاديميين؛ إذ الأفق المهيمن هو أفق النقد، فهو يطغى على الكثير من الدراسات والأبحاث، علـى الرغم من أن نقد النقد قد أصبح في السنوات الأخيرة مطلبا وضرورة لأسباب متعددة يقف علـى رأسها: التراكم على مستوى الخطاب النقدي، هذا الأخير الذي قُدِّمت في إطاره دراسات كثيرة قاربت الإبداعات الأدبية قديمها وحديثها بمناهج نقدية مـختلفة. فكانت الحاجة ماسة إلى خطاب يُعرِّف بالنقد الأدبي ويراجعه ويسائله، ويبين فلسفته وآلياته وإجراءاته ومبادئه وأهدافه، ويصحح مساره، ويسعى إلـى الإسهام في تحولاته؛ لأن الاكتفاء بتلقي الخطاب النقدي، وترديد ما يقوله دون مسائلة ولا تبين لقيمته من جهة، وثغراته وتمحلاته من جهة أخرى يؤدِّي إلى نوع من التكلس والنمطية والركود في الحياة النقدية، وتسلط كل رأي بما يعتقده.

أولا: مفهوم نقد النقد:

يلحظ المتتبع للكثير من الدراسات التي حاولت تقديم خطاب " نقد النقد" إلى القارئ العربي أنها لا تكاد تخلو من محاولة ضبط لمفهوم "نقد النقد"، منطلقة في معظم الأحيان من موضوع هذا الحقل المعرفي؛ أي النقد الأدبي. ويظهر أن هذه المفاهيم تتقاطع ولا تختلف كثيرا، وتتسم في أغلبها« بالإيجاز الذي يقصر عن الإيفاء بضرورة إرساء المصطلح على أسس علمية ومنهجية واضحة»[٤]. غير أن الملفت في هذا أن " سامي سويدان " مترجم كتاب تزفيتان تودوروف (Tzvetan Todorov) "نقد النقد رواية تعلم" (Critique de la Critique un Roman d'apprentissage) لم يبادر في مقدمة ترجمته إلى تبيان المقصود من هذا المصطلح "نقد النقد"، وهو ما لا نجد له أثرا في الكتاب كله.

يعد الناقد المصري "جابر عصفور" من بين أوائل النقاد العرب الذين حاولوا تقديم مفهوم لـ"نقد النقد" بصورته المعروف عليها اليوم؛ إذ يشير إلى أنه

(٢) محمد بلوحي، الشعر العذري في ضوء النقد العربي الحديث (دراسة في نقد النقد)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، د. ط، ٢٠٠٠، ص٧.

(٣) محمد الدغمومي، نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية، الرباط، ط١، ١٩٩٩، ص١١٣.

(٤) رشيد هارون: «الأسس النظرية لنقد النقد»، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، م٢، ع١، بغداد، العراق، حزيران ٢٠١٢، ص ١٢٣.

«قول آخر عن النقد، يدور حول مراجعة "القول النقدي" ذاته، وفحصه، وأعني مراجعة مصطلحات النقد، وبنيته المنطقية، ومبادئه الأساسية وفرضياته التفسيرية، وأدواته الإجرائية»(٥) . وتأتي أهمية اصطفاء هذا المفهوم على غيره من المفاهيم الأخرى لسببين:

أولهما: ريادته: فبالنظر إلى تاريخ نشر مقالة "نقاد نجيب محفوظ" ضمن مجلة فصول (١٩٨١) يتبين لنا أنه سابق على تاريخ نشر كتاب " تودوروف " لأول مرة سنة (١٩٨٣)، بَلْهَ عن ترجمته إلى اللغة العربية سنة (١٩٨٦م).

ثانيهما: بُعْد هذا المفهوم عن اختزال "نقد النقد" في صورة سجالية/ انتقادية، خلافا لما سبقه من محاولات سعت إلى التبشير بنقد النقد على أنه كذلك؛ منها محاولة "عباس محمود العقاد" في مقدمة ديوانه "بعد الأعاصير"؛ إذ رأى أنه لا مناص لنا اليوم من نقد النقد الذي سيعمل على تخليص النقد العربي المعاصر من الهوى والعصبية التي ألمت به(٦) .

ومنها أيضا المحاولة التأصيلية " لعبده عبد العزيز قلقيلة" في كتابه "نقد النقد في التراث العربي"، حيث يعني نقد النقد عنده « تلك الكتب النقدية التي ألفها أصحابها مفندين بها كتبا نقدية أخرى»(٧) .

وبالعودة إلى مفهوم "جابر عصفور" لنقد النقد، نلحظ أنه قد ركز فيه على المراجعة؛ فهو مراجعة للغة النقد الاصطلاحية، ومنطلقاته وفرضياته وآلياته الإجرائية. لكن هل تقتصر هذه المراجعة على الممارسة النقدية أم تتعداها إلى التنظير النقدي؟ يجيبنا "جابر عصفور" في موضع آخر واصفًا الكتابات التي يصنفها في باب نقد النقد قائلا: إنها «الكتابات التي تراجع النشاط النقدي في فعل الممارسة من منظور الوصف والتفسير والتقييم»(٨) ، ومن هنا يتبين أن نقد النقد عند "جابر عصفور" يقتصر على فرع من فرعي نقد النقد وهو "نقد النقد التطبيقي". وهو ما يتجسد فعلا في مقالته "نقاد نجيب محفوظ" التي تناول فيها بالدراسة والتحليل والتفسير والتقييم بعض الممارسات التطبيقية للنقاد العرب المعاصرين على نصوص " نجيب محفوظ " الروائية.

ومن المفاهيم الفضفاضة التي قُدِّمت لنقد النقد نعثر على مفهوم لـ "محمد مريني" الذي يعرفه قائلا:« نقد

(٥) جابر عصفور: «نقاد نجيب محفوظ، ملاحظات أولية»، مجلة فصول، م١، ع٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، أبريل ١٩٨١، ص ١٦٤.

(٦) ينظر: عباس محمود العقاد، ديوان من دواوين، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، د. ط، ٢٠٠١، ص٢٩١.

(٧)عبده عبد العزيز قيلقلة، نقد النقد في التراث العربي، منشورات مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٧٥، ص ٨.

(٨) جابر عصفور، نظريات معاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، د. ط، ١٩٩٨، ص٢٦٧.

النقد خطاب واصف للنقد، إنه يجعل من النصوص النقدية مدار اشتغاله»[٩]. ويبدو أن هذا المفهوم يدور في فلك مفهوم "جابر عصفور" السابق؛ إذ يشير مصطلح "النصوص النقدية"، في الأغلب الأعم، إلى الممارسات التطبيقية على النصوص الإبداعية.

أما "محمد الدغمومي" فيذهب إلى أن "نقد النقد"« بناء معرفي إجرائي وظيفي يعمل باستراتيجية واحدة ليست أبدا استراتيجية التنظير أو النظرية الأدبية أو النقد، وإنما يستهدف من خلال معرفة طبيعية الممارسات النقدية (ألياتها، مبادئها، غاياتها، معرفتها) الوصول إلى أحد المرامي الآتية:

- ❖ كشف الخلل فيها.
- ❖ تدعيم هذه الممارسة.
- ❖ تبرير هذه الممارسة.
- ❖ تحديد تشغيل الإجراءات في ممارسة منهج ما.
- ❖ فحص النظريات النقدية والأدبية بما هي بناءات معرفية»[١٠].

لقد سقنا هذا اليوم المفهوم – على طوله !- لنتبين منه ما يأتي:

١- لا يقصر " محمد الدغمومي " وظيفة "نقد النقد"، مثل النقاد السابقين، على النظر في الممارسات التطبيقية ونقدها؛ أي: "نقد النقد التطبيقي"، وإن كان يلح على هذا الفرع الأخير أكثر من "نقد النقد النظري"، وهو ما يَحُدُّ من نقد النقد ويُضَيِّقُ مجاله.

٢- إشارته إلى أن "نقد النقد" يعمل بإستراتيجية واحدة يدل على أن " نقد النقد" مشروع قد اكتمل، فضبطت مفاهيمه وآلياته الإجرائية وأهدافه، إلا أن الواقع بخلاف ذلك؛ إذ يقر "محمد الدغمومي" ذاته أن "نقد النقد"« حتى الآن سوى مشروع يصعب تحديده وتعريفه وظيفته ومقاصده»[١١]، وعلى فرض أن "نقد النقد" قد اكتمل، فإن حصره في منهجية واحدة في القراءة والتحليل يصيّره دوغمائية جامدة تتسلط بما تعتقده.

٣- نتفق مع "محمد الدغمومي" في ذهابه إلى أن الإستراتيجية التي يعمل وفقها "نقد النقد" تختلف عن إستراتيجية النقد الأدبي؛ لأن اختلاف موضوع المقاربة بين الحقلين يؤدي بالضرورة إلى اختلاف الآليات والأدوات الإجرائية والأهداف المتوخاة.

أما "محمد بلوحي" فينظر إلى نقد النقد على أنه خطاب« يتساءل عن صلاحية المناهج النقدية المتبعة في قراءة الإبداع والظواهر الأدبية، وعن الأصول المعرفية والابستيمولوجية لهذه المناهج، وما هو الموقف الذي

(٩) محمد مريني: «نقد النقد في المفهوم والمصطلح و المقاربة المنهجية»، مجلة علامات في النقد، م١٦، ع٦٤، النادي الأدبي الثقافي بجدة، السعودية، فبراير ٢٠٠٨، ص٤٠.

(١٠) محمد الدغمومي، نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، ص٥٢.

(١١) المرجع نفسه، ص١١٣.

ينبغي أن يتخذه ناقد النقد وهو يتفحص أعمالا نقدية تحتك مباشرة بالإبداع الفني»[١٢]، ولعلَّ هذا بعض ما كان يصبو إلى تحقيقه "تزفيتان تودوروف" من وراء تأليف كتابه " نقد النقد رواية تعلم" حيث يقول: «إنني أرغب أولا في معاينة الكيفية التي تم فيها التفكير بالأدب والنقد في القرن العشرين؛ وأن أسعى في الوقت نفسه لمعرفة ما قد تكون عليه فكرة صحيحة عن الأدب والنقد. كما أنني أرغب من ثم في تحليل التيارات الإيديولوجية الكبرى لهذه المرحلة كما تتجلى من خلال التفكير حول الأدب، وأن أسعى في الوقت نفسه إلى معرفة أي موقف إيديولوجي أكثر متانة من المواقف الأخرى»[١٣] . فما يجمع بين هذه الغايات وأهداف ناقد النقد العربي: النظر في الطريقة التي توسّل بها النقاد في مقاربة المبدعات الفنية؛ وذلك لمعرفة مدى صلاحية هذه الكيفية ومتانتها في تحليل الظواهر الإبداعية.

وأما "باقر جاسم محمد" فيعتبر "نقد النقد" خطاب يختلف عن النقد الأدبي من جهة الموضوع خاصة؛ فإذا كان« موضوع النقد الأدبي يتضمن عنصرا واحدا وهو دراسة الأعمال الأدبية وطرق تلقيها وتذوقها، ...[فإن] موضوع نقد النقد يتضمن عنصرين مختلفين: أولهما النقد الأدبي في مستوييه النظري والتطبيقي، وثانيهما الأعمال الأدبية»[١٤].

من هنا يظهر اختلاف رؤية "باقر جاسم محمد" إلى نقد النقد، الذي دعا بحماسة إلى استقلاله عن النقد الأدبي، عن رؤية النقاد العرب التي تطرقنا إليها سابقا؛ إذ وسَّعَ من دائرة اشتغاله، فلم يعد عنده مقتصرا على النظر في المقاربات النقدية للنصوص الأدبية، وتحليلها، وتقييمها، بل صار يشتمل على مناقشة الأسس النظرية للخطابات والتيارات النقدية، بالإضافة إلى ذلك يَجْعَلُ من مهام ناقد النقد: تقديم قراءة نقدية للأعمال الإبداعية تستلهم وتتناص مع القراءات النقدية السابقة أو تتجاوزها.

وفي المحصلة نخلص إلى أن : "نقد النقد" خطاب معرفي يسعى إلى مراجعة النقد الأدبي، بشقيه النظري والتطبيقي، وتحليله وفهمه، عن طريق النظر في مرجعياته وخلفياته المعرفية والفكرية ومبادئه، وآلياته وأدواته الإجرائية، وغاياته، ومصطلحاته، ولغته النقدية ... .

(١٢) محمد بلوحي، الشعر العذري في ضوء النقد العربي الحديث (دراسة في نقد النقد)، ص٧.

(١٣) تزفيتان تودوروف، نقد النقد رواية تعلم، تر: سامي سويدان، منشورات مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٦، ص ١٦.

(١٤) باقر جاسم محمد: «نقد النقد أم الميتانقد؟ (محاولة في تأصيل المفهوم)»، مجلة عالم الفكر، م٣٧، ع٣، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير، مارس٢٠٠٩، ص١١.

ثانياً: إشكالية المصطلح

شكلت ، ولا تزال، ترجمة المصطلحات النقدية الغربية الوافدة إلى الثقافة العربية الحديثة والمعاصرة هاجسًا معرفيًا، وإشكالية، كثيرا ما استوقفت النقاد والباحثين، فأُنْجِزَتْ في سبيل ذلك العديد من الدراسات والرسائل العلمية، متغيبة الوقوف على أسباب هذه الشرذمة الاصطلاحية ومن ثم تقديم بعض المخارج والحلول لتجاوز هذه الأزمة.

ومن الأبحاث التي مُحِضَتْ لدراسة هذه الإشكالية نجد، على سبيل المثال لا الحصر، الرسالة العلمية التي أنجزها الناقد الجزائري "يوسف وغليسي" والتي عنونها بـــ " إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد".

وليس مصطلحا (Critique de la Critique) و(Méta critique) بمنأى عن هذه الإشكالية، فقد ترجما، على حدّ اطّلاعنا، إلى "نقد النقد"، وهي الترجمة الأكثر استعمالا ودورانا في قاموس النقد العربي المعاصر، و"ما بعد النقد" و"النقد الشارح" و"قراءة القراءة" و"الميتانقد". وإذا كان "تودوروف" قد هجر ما كان «يفترض أن يستعمله وهو "Métacritique" الجاري في استعمالاتهم اللغوية الجديدة كقولهم : "Métalangage"»(١٥)، وفضَّلَ استعمال مصطلح (Critique de la critique) بديلا عنه؛ فإن تعدد ترجمة هذين المصطلحين في الثقافة النقدية العربية المعاصرة إلى ما كنا قد ذكرناه ينبئ عن نوع من إرادة القوة التشوية، نسبة إلى الفيلسوف الألماني فريدريك نتشه (F.Nietzsche)، في ترجمة المصطلحات النقدية الوافدة، واعتداد كل ناقد برأيه والتعصب إليه.

يشير العديد من النقاد والباحثين في كثير من المناسبات إلى أن أول ترجمة لمصطلح (Critique de la critique) كانت على يدي "سامي سويدان" مترجم كتاب "تزيفيتان تودوروف" (Critique de la Critique Un Roman d'Apprentissage) إلى (نقد النقد رواية تعلم)، وذلك سنة ١٩٨٦؛ أي بعد حوالي ثلاث سنوات من صدور هذا الكتاب لأول مرة باللغة الفرنسية. إلا أن الملاحظ أن مصطلح "نقد النقد" قد شهد رواجا في الثقافة النقدية العربية، بدلالات مختلفة، قبل هذه الترجمة بردح من الزمن.

فقد استعمل، في حدود ما هو متوفر لدينا من مصادر، لأول مرة في خمسينيات القرن الماضي، وكان ذلك في مقدمة ديوان "بعد الأعاصير" لـ " عباس محمود العقاد". كما أثيرت على صفحات جريدة "الأهرام" في ستينيات القرن الماضي «أزمة النقد الفني في حلقات موضوعها "نقد النقد" ومدى عبث

(١٥) عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد (متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها)، دار هومه، الجزائر، ط١ ، ص ص ٢٢٣،٢٢٢.

المحترفين لصناعة النقد بهذا الفن الجميل»[١٦] ، ثم إن لعبده عبد العزيز قليقة كتابا معنونا بـ "نقد النقد في التراث العربي" نشره سنة ١٩٧٥ .

يبدو أن استعمال مصطلح "نقد النقد" في هذه المرحلة كان استعمالًا عفويًّا «ينطق من المعنى اللغوي للمصطلح، دون استيعاب لأسسه النقدية والفلسفية»[١٧] . أما المرحلة الثانية لتداول مصطلح "نقد النقد" فقد تجلّت منذ بداية ثمانينيات القرن الماضي، وكانت الانطلاقة مع مقال "نقاد نجيب محفوظ، ملاحظات أولية" لــ " جابر عصفور " الذي نُشر في مجلة فصول سنة١٩٨١م؛ أي قبل نشر كتاب "تودوروف" لأول مرة بحوالي سنتين، وقد لاحظنا آنفا أن "جابر عصفور" كان على وعي بدلالة هذا المصطلح، وعلى وعي بهذا الحقل المعرفي الذي بدأ يتشكّل؛ بدليل أنه قدّم مفهومًا لمصطلح "نقد النقد" لا يبتعد كثيرًا عن المفاهيم التي وُضعت له فيما بعد.

غير أن "جابر عصفور" يستعمل مقابلًا آخر كترجمة لمصطلح (Métacritique) هو مصطلح "ما بعد النقد"؛ إذ يذهب إلى أن هذا الأخير« مستعار من "المنطق الرمزي" عبر "علم اللغة"، ذلك أن ما بعد النقد هو عملية مراجعة تشبه –في جذورها– العملية التي تراجع بها نفسها اللغة باستخدام كلماتها، أو العملية التي تجعلنا نتحدث باللغة العربية – مثلا– عن اللغة العربية ذاتها»[١٨] ، وهو يشير هنا إلى مصطلح "Métalangage". لكن ترجمة السابقة (Méta)، في هذا الوضع بالذات، بمصطلح "ما بعد" لا تخلو، في حقيقة الأمر، من إشكال والتباس، على اعتبار أن «دلالة هذه السابقة في العلوم الإنسانية تعني الإخراج والإبعاد، كما تعني الاحتواء والإدخال. فإلى أيّ المعنيين يُراد؟ إلى الأول أم إلى الآخر؟ وأيهما أليق بالمقام؟»[١٩] . فهل إذا تحدث ناقد عن كتابات ناقد آخر محللا إياها ناظرا في مبادئها ومرجعياتها ومصطلحاتها وآلياتها الإجرائية، نقول: إن النقد الثاني يقع خارج إطار النقد الأول، وينفصل عنه؟ ألم ينسج النقد الثاني على النقد الأول؟ ولولا هذا الأخير لما كان ليعرف النور؟

أما إذا كانت "ما بعد" التي يصطنعها جابر عصفور كترجمة للسابقة "Méta" تشير إلى تراتيبة زمنية فهذا لا ينكره أحد. أما أن تشير إلى نوع من الإبعاد أو الانفصال أو حتى الأفضلية، فهذا ربما ما لا يتفق معه فيه أحد.

---

(١٦) بدوي طبانة ، التيارات المعاصرة في النقد الأدبي، دار المريخ، الرياض، السعودية، ط٣، ١٩٨٦، ص ٦٠.

(١٧) محمد مريني: «نقد النقد في المفهوم والمصطلح والمقاربة المنهجية»، ص٣٩.

(١٨) جابر عصفور، «نقاد نجيب محفوظ، ملاحظات أولية»، ص١٧٧.

(١٩) عبد الملك مرتاض، مائة قضية... وقضية، دار هومه، الجزائر، ط١، ٢٠١٢، ص٥٣.

وليت "جابر عصفور" اكتفى بهاتين الترجمتين لمصطلح "Métacritique"؛ إذ راح في مقام آخر يترجمه بمصطلح "النقد الشارح"، ويقول« هكذا بدأ مصطلح النقد الشارح (Métacritism) يظهر في موازاة اللغة الشارحة (Mètalanguage) ويلح كلاهما على الاستخدام النقدي بوصفهما دالين على التفات النقد إلى نفسه، وعلى وعي لغته بحضورها المائز في إشارتها الذاتية»[٢٠]، ولا يشير ، كما هو ملاحظ، ظاهر مصطلح "النقد الشارح" إلى مفهومه الذي أراد "جابر عصفور" أن يدل عليه، بخلاف مصطلح "نقد النقد" المتداول، كما أن الشرح آلية لا يكاد يخلو منها حقل معرفي.

وقد تُرجم مصطلح (Critique de la critique) أيضا إلى "قراءة القراءة"، وكان من بين النقاد العرب المعاصرين الذين نقلو المصطلح الفرنسي إلى هذه الصيغة الناقد الجزائري "عبد الملك مرتاض" في مقالته "الكتابة التحليلة بين التراث والحداثة" (١٩٩٣)، غير أنه عدل في كتاباته الأخيرة إلى توظيف مصطلح "نقد النقد" بديلا عن مصطلح "قراءة القراءة"؛ فاختار للفصل الأخير من كتابه " في نظرية النقد"عنوان " في نقد النقد" رائيا أن ترجمة "سامي سويدان" مصطلح "critique de la ctirique" بـــ" نقد النقد"« تقبلها ذوق النقاد العرب المعاصرين تقبلا حسنا»[٢١] ، و يصف "عبد الملك مرتاض" هذه الترجمة في كتابه الأحدث زمنًا "مائة قضية...و قضية" (٢٠١٢) بأنها «ترجمة عربية صحيحة»[٢٢]، قائلا عن مصطلح "نقد النقد" : إنه «المصطلح الذي نميل إلى استعماله»[٢٣].

ويعثر الناظر في الخطاب التنظيري لنقد النقد –على قلّته– على ترجمة أخرى لمصطلح (Critique de la critique) أو (Métacritique) وهي ترجمة كان قد اصطنعها الناقد العراقي"باقر جاسم محمد" في مقالته "نقد النقد أم الميتانقد؟" (محاولة في تأصيل المفهوم)، والتي دعا فيها إلى ضرورة استقلال نقد النقد عن النقد الأدبي، على اعتبار أن نقد النقد حقل معرفي يختلف عن النقد الأدبي في الموضوع، والمصطلحات، والآليات الإجرائية، والأهداف التي يتغيّاها. من هنا رأي أن« مصطلح نقد النقد لم يعد صالحا لوصف المرحلة الجديدة»[٢٤]؛ أي: المرحلة التي استقل فيها نقد النقد بنفسه، واستوى حقلًا معرفيًا واضح المعالم والحدود! ويرجع فقدان مصطلح "نقد النقد" شرعية وجودة للأسباب الآتية[٢٥]:

(٢٠) جابر عصفور، نظريات معاصرة، ص ٢٧١.

(٢١) عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد، ص ٢٢٢.

(٢٢) عبد الملك مرتاض، مائة قضية...وقضية، ص ٥٤.

(٢٣) المرجع نفسه، ص ٥٦.

(٢٤) باقر جاسم محمد:«نقد النقد أم الميتانقد؟ (محاولة تأصيل المفهوم)»، ص١٢١.

(٢٥) المرجع نفسه، ص١٢١.

١- إن مصطلح "نقد النقد" يعبر عن مرحلة سابقة في تطور ما اصطلح عليه بنقد النقد. تلك المرحلة التي لم يكن "نقد النقد" قد حقق لنفسه منزلة الحقل العلمي المستقل.

٢- لايعبِّرُ المصطلح في صورته هذه عن مغايرة جوهرية في ما نعنيه بالنقد الأدبي في ممارسته المألوفة، بقدر ما يجعل منه تعقيب، وربما تعقيب قادح على النقد الأدبي.

٣- إنه لا يحقق مبدأ الاقتصاد في التعبير الاصطلاحي.

إذا كان مصطلح "نقد النقد" لم يتجاوز في السياق العربي بعد« دائرة الالتباس المضاعف الآتي من اجتماع كلمتين هما في الأصل كلمة واحدة ينضاف التباسها الأصلي إلى التباس آخر ينجم عن إضافة غامض إلى نفسه»[٢٦] ، فإن الالتباس يتضاعف أكثر فأكثر بإلصاق مصطلح أجنبي معرّب هو "الميتا" (Méta) بمصطلح عربي أصيل هو"النقد"، وهذا ما حذرت منه المجامع العلمية اللغوية في أثناء وضع المصطلحات العلمية والفنية وترجمتها، حفاظا على سلامة اللغة العربية؛ إذ دعت إلى ضرورة« تجنب استعمال السوابق واللواحق الأجنبية؛ لأن اللغة العربية لغة اشتقاقية وليست إلصاقية، ووجوب اعتماد الأساليب العربية في وضع المصطلحات»[٢٧] ، كما أن المصطلح الأجنبي المعرّب "الميتا" (Méta) تختلف دلالته من حقل معرفي إلى آخر بحيث يصعب، في كثير من الأحيان، ترجمته والقبض على دلالته الحقيقية في اللغة الهدف؛ إذ تعني هذه السابقة الإغريقية في«حقل العلوم الإنسانية والفلسفية بالذات غير ما تعنيه في الكيمياء العضوية مثلاً، فهي تعني في حقول العلوم الإنسانية: الاحتواء، أكثر مما تعني الإبعاد والإخراج»[٢٨] ، فإذا نحن أخذنا بدلالة مصطلح "الميتا" على الاحتواء، وأجرينا ذلك على "نقد النقد"، دل هذا الصنيع على وجود حقل معرفي (النقد) ينضوي تحت حقل معرفي آخر ويدخل تحت لوائه (الميتانقد)، فيصير بذلك النقد الأدبي فرعا معرفيا، وجزءًا لا يتجزأ من الحقل المعرفي الجديد (نقد النقد)، فيكون "باقر جاسم محمد" من حيث إنه دعا إلى ضرورة« فك التداخل والاشتباك بين النقد الأدبي والحقل العلمي الجديد [نقد النقد] »[٢٩]، واستقلال كل منهما عن الآخر، قد أحكم، من حيث لم يشعر، الارتباط بينهما وشدّه.

(٢٦) محمد الدغمومي، نقد النقد و تنظير النقد العربي المعاصر، ص١١٣.

(٢٧) أحمد مطلوب، معجم مصطلحات النقد العربي القديم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠١، ص٥.

(٢٨) عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد، ص ٢٢٤.

(٢٩) باقر جاسم محمد:«نقد النقد أم الميتانقد؟ محاولة تأصيل المفهوم» ، ص ١٢٢.

أما قوله بأن "الميتانقد" لا يبتعد عن مصطلحات كالميتافيزيقا مثلاً فذلك شأن آخر؛ لأن مصطلح الميتافيزيقا هو تعريب للمصطلح الأرسطي (Métaphysique)، وليس إلصاقا لمصطلح إغريقي (الميتا) بمصطلح عربي (النقد)، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن الفلاسفة العرب قد ترجموا مصطلح (Métaphysique) بمصطلح (ما وراء الطبيعة)؛ لأنه يدل على ذلك فعلاً في اللغة التي نقل منه؛ إذ تشير لفظة "الميتافيزيقا" إلى كل « الموضوعات الخارجة عن نطاق التجربة ونطاق الزمان والمكان»[٣٠]. من هنا يبدو أن تشبيه "باقر جاسم محمد" للميتانقد بالميتافيزيقا لم يكن في محله، فإذا كانت "الميتافيزيقا" ، بوصفها علما، تختلف عن "الفيزيقا"، علم الطبيعة، من حيث الماهية، وموضوعات الدراسة فإن موضوع "الميتانقد" هو النقد الأدبي ذاته.

وخليق بنا، ونحن ننفض أيدينا من محاولة مناقشة بعض الترجمات التي قدّمت لمصطلح (Critique de la critique) أو (Métacritique)، أن نصطفي من بينها أقربها وأدقها في الدلالة على هذا الحقل العلمي الجديد، وقد وقع اختيارنا على مصطلح "نقد النقد" للأسباب الآتية:

١- تداوله وشيوعه بين النقاد العرب حتى قبل ظهوره في النقد الغربي، واستقرار دلالته، والوعي به؛ لأن« ما يقرر حياة المصطلح هو الاستعمال وليس الوضع، فالوضع هو بمثابة الولادة، وليس كل مولود يكتب له العيش والحياة، لأن العيش يقرره تعامل المجتمع مع المولود الجديد وتعهده بالرعاية والعناية. والمصطلح الذي يلقى القبول والاستعمال من قبل الجمهور هو الذي يحظى بالبقاء والاستمرار، أما المصطلحات التي لا تستعمل فهي بمثابة موتى لا وجود لهم إلا في سجلات النفوس»[٣١].

٢- صياغة علماء الكلام ، وخاصة الأشاعرة منهم، مصطلحاتهم على هذه الشاكلة؛ إذ كانوا يقولون:« فناء الفاني، وخفاء الخافي، وزمان الزمان، وزمان زمان الزمان...» [٣٢] ، كما كان "عبد القاهر الجرجاني" قد سبك لأول مرة مصطلح "معنى المعنى"، مشيرا إلى ضرب آخر من الدلالة لا يصل إليه المرء من ظاهر اللفظ وحده[٣٣]، والعودة إلى التراث ومسايرته في اختيار المصطلحات ووضعها، من بين

(٣٠)إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، تونس، ط١، ١٩٨٦، ص ٣٦٢.

(٣١) علي القاسمي: « لماذا أهمل المصطلح التراثي»، مجلة المناظرة، الرباط، المغرب، س٤، ع٦، ١٩٩٣، ص ٣٨، نقلا عن: يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط١، ٢٠٠٨، ص٧٩.

(٣٢) ابن حزم الظاهري، الفصل في الملل و الأهواء و النحل، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت، ج٥، ص٣١.

(٣٣) عبد القادر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح (محمود محمد شاكر)، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط٥، ٢٠٠٤، ص٢٦٢.

أهم المبادئ الأساسية التي أقرتها (ندوة توحيد منهجيات وضع المصطلح العلمي العربي)، التي نظمها مكتب تنسيق التعريب، التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في فيفري ١٩٨١م بالرباط[٣٤]، وهو المبدأ ذاته الذي آثره المجمع العلمي العراقي في اختيار المصطلحات ووضعها.

٣- تقبل الحس النقدي العربي لمصطلح "نقد النقد"، وارتضاءه له، وهو ما لاحظناه عند بعض النقاد العرب المعاصرين أمثال: "عبد الملك مرتاض" وغيره، ما أدى إلى شيوع هذا المصطلح أكثر من المصطلحات الأخرى.

ثالثاً: فروع نقد النقد واهتماماته:

لعله قد اتضح مما تقدم ذكره أن موضوع "نقد النقد" ومجال اشتغاله هو النقد الأدبي بشقيه النظري والتطبيقي، ومادام الحال كذلك، فإن نقد النقد ينقسم بدوره هو الآخر إلى قسمين:

أ. **نقد النقد النظري**: وينشغل هذا الفرع بمناقشة الأسس النظرية والمعرفية للخطاب النقدي موضع الدرس، والبحث في مرجعياته الفكرية والفلسفية والجمالية والسوسيولوجية والزمانية وحتى الإيديولوجية؛ إذ من مساعي "نقد النقد" « إلقاء مزيد من الضياء على أصول المذهب النقدي وتبيان أصوله المعرفية، وتوضيح الخلفيات التي يستمد منها مرجعياته على المستويين المعرفي والمنهجي معا»[٣٥]، فمن الأمثل لنقد النقد، والقول لعبد الملك مرتاض، أن يكون«... تأثيلا لمصادر معرفتهم (النقاد)، وتجذيرا لأصول نزعاتهم النقدية»[٣٦]، كما يأخذ هذا الفرع من "نقد النقد" على عاتقه النظر في المبادئ الأساسية والأدوات والآليات الإجرائية التي يتوسل بها الخطاب النقدي، والغايات والأهداف المتوخاة من وراء الرؤية النقدية التي يروم الخطاب النقدي تحقيقها بصفة خاصة، وما يسعى إليه المذهب النقدي بصفة عامة.

ولا يفوته التأمل والتفكر في أمر المصطلحات والمفاهيم النقدية بوصفها مفاتيح العلوم والخطابات المعرفية، ومن ثم موضعتها في السياق العام للنظرية النقدية؛ بتبيان دورها وأهميتها، وأيضا خللها وقصورها، والمشاركة في تصحيح مسارها، والإسهام في تحولاتها. ولا يفوت ناقد النقد النظري كذلك تحليل لغة الخطاب النقدي التنظيري باحثا في طبيعتها وتقنياتها وأساليبها وخصائصها ومميزاتها وآليات اشتغالها.

---

(٣٤) فاضل ثامر، اللغة الثانية، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩٤، ص ١٧٢.

(٣٥) عبد الملك مرتاض، نظرية النقد، ص ٢٢٧.

(٣٦) المرجع نفسه، ص ٢٥٣.

ب. **نقد النقد التطبيقي**: ويركز هذا القسم على الممارسة التطبيقية في الخطاب النقدي عند ناقد بعينه أو مجموعة من النقاد؛ أي معاينة صورة الخطاب الإبداعي في المقاربة النقدية، ومدى ما بلغته تلك الآليات والإجراءات النقدية التي لجأ إليها الناقد في إضاءة العمل الأدبي وسبر أغواره وتفجير مكامنه، وتناسب وانسجام هذه القراءة النقدية مع طبيعة النص المنقود وحقائقه، واتساق ذلك مع الأسس المعرفية والمنهجية للناقد؛ أي مدى وفاء الناقد للمنهج أو الاتجاه النقدي الذي تبناه في الاقتراب من النصوص الإبداعية وقراءتها وتحليلها؛ ومن ثم فإن "نقد النقد التطبيقي"، في بعض جوانبه، هو« استقراء للنص النقدي التطبيقي مبينا الجوانب الإيجابية فيه، ومؤشرًا أيضا على جوانب الإخفاق بالارتباط مع النص الأدبي الذي درسه النص النقدي»[٣٧] ، كما يقوم "نقد النقد التطبيقي" على توصيف لغة القراءات النقدية للنصوص الإبداعية ودراستها من جوانب متعددة. إضافة إلى ذلك فإن ناقد النقد التطبيقي سيكون على علاقتين بنصين هما: النص الأصلي ونص الناقد، فهو بالتالي على موعد مع إنجاز « قراءتين لا قراءة واحدة. فهو سيقرأ النص الأدبي والنص النقدي معا بصفته قارئًا، ومن ثم بصفته ناقدا»[٣٨] ، وقراءة ناقد النقد للنص الأدبي تختلف بالضرورة عن قراءة الناقد له من ناحيتين:

فهي لن تكون متطابقة مع قراءة الناقد للنص الأدبي، ومتفقة معها حذو القذة بالقذة، من جهة، كما أنها لن تكون على هيئة المقاربة النقدية المعهودة التي تلتزم بتحليل النص الأدبي وفق آليات وإجراءات محددة سلفا؛ لأن قراءة ناقد النقد إما أن« تتخذ شكل ردود واعتراضات وتصويبات لآراء الناقد الأول، أو قد تنزع إلى إعادة فحص وتقويم النص الأدبي برمته، وقد تشمل عملية إعادة الفحص والتقويم أجزاء منه. وبهذا الوصف، فإن قراءة نقد النقد ستكون ذات جوهر حواري متعدد الأطراف»[٣٩] ، إضافة إلى أن قراءة ناقد النقد للنص الأدبي تكون، في الغالب ، ضمنية ومتداخلة مع مراجعة ناقد النقد للنص النقدي. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن« الاحتكام إلى النص الأدبي سيكون من أهم وسائل ترجيح رأي على آخر في أي اختلاف بين النص النقدي والنص الذي يتناوله بالنقد»[٤٠] ، وهو ما سيجعل النص الأدبي هو الذي يتكلم دون أن تفرض عليه إسقاطات من الخارج.

(٣٧) باقر جاسم محمد: « نقد النقد أم الميتانقد؟محاولة تأصيل المفهوم»،ص ١١٩.

(٣٨) المرجع نفسه، ص١١٩.

(٣٩) المرجع نفسه، ص١٢٠.

(٤٠)المرجع نفسه ، ص١٢٠.

رابعاً: من وظائف ومهام نقد النقد

يضطلع خطاب "نقد النقد"، بوصفه حقلا معرفيا متميزا عن غيره، بمجموعة من الوظائف والمهام أناطه بها عدد من الباحثين الذين يسعون، في كل مرة، إلى التنظير له وروز جوانبه؛ وبما أن نقد النقد، كما تبين لنا سابقًا، مشروع لَمَّا يكتمل بعد؛ فإنه لا يمكن الجزم بما سينجزه، وتحديد مهماته بدقة. وبعد النظر فيما قدمّه عدد من الباحثين والنقاد يمكن صياغة وعرض بعض وظائف نقد النقد في شكل نقاط كالآتي[٤١]:

١- يفكك نقد النقد مقولات النقد الأدبي؛ وذلك بغرض فحص العناصر الإيديولوجية الثاوية في المزاعم النظرية، ويكشف عن طبيعة المؤثرات الثقافية والاجتماعية والسياسية التي كوّنت الحاضنة السياقية للنص النقدي، وجعلت الناقد يتبنى منهجا نقديا دون سواه.

٢- يكشف عن صيرورة النقد الأدبي وتحولاته.

٣- يعمل على إعادة تشكيل وعي القارئ غير المنتج ليكون على بصيرة تتجاوز مسألة فهم ما قاله الناقد الأدبي بحق عمل أدبي بعينه إلى مسألة معرفة كيف قال الناقد ذلك ولِمَا؟

٤- يدرس لغة النقد الأدبي وآلياته بوصفها معطى أدبيا ذا طبيعة خاصة يقوم على المزاوجة بين حرية الإبداع من جهة والالتزامات المنهجية والمعرفية من جهة أخرى.

٥- يُلقي مزيدًا من الضياء على المذهب النقدي الذي يتبناه الخطاب النقدي موضوع الدراسة، وينظر في أصوله المعرفية، ويوضح الخلفيات التي يستمد منها مرجعياته على المستويين المعرفي والمنهجي معا؛ وذلك بهدف إضاءة أفكار النقاد وتأثيل مصادر معرفتهم، وتجذير أصول نزعاتهم النقدية.

٦- يناقش مدى انسجام أسس النص النقدي المنهجية، ومنطلقاته الفكرية ونتائجه مع حقائق النص الأدبي المنقود من جهة، ومع منطلقات الناقد نفسه من جهة أخرى.

٧- يقوم نقد النقد بقراءة مزدوجة، فهو يقرأ النص النقدي قراءة محاورة واختلاف، وفي الوقت نفسه ينجز قراءته الخاصة للنص الأدبي المنقود.

٨- يراجع مصطلحات النص الأدبي ومفاهيمه وآلياته وأدواته الإجرائية وفرضياته التفسيرية؛ أي: مساءلة المفاهيم والتصورات النقدية الكبرى التي فرغ منها التنظير النقدي، وانطلقت الممارسات النقدية من التسليم بها.

---

(٤١) ينظر: باقر جاسم محمد: «نقد النقد أم الميتانقد؟ (محاولة تأصيل المفهوم)»، ص ص ١٢٢-١٢٣، عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد، ص ص ٢٢٧-٢٥٣، جابر عصفور، نظريات معاصرة، ص٢٩٦، جابر عصفور: «نقاد نجيب محفوظ، ملاحظات أولية»، ص١٦٥. رشيد هارون: «الأسس النظرية لنقد النقد»، ص١٢٥.

خامساً: من أهداف وغايات نقد النقد.

يصبو نقد النقد، مثله مثل أي خطاب في المعرفة، إلى تحقيق عدد من المقاصد والأغراض التي تكسبه بعضا من شرعية وجوده وحضوره، واستقلاله عن غيره من الحقول المعرفية الأخرى. إلا أن رصّد كل ما يرنو إليه نقد النقد غير متأت الآن؛ لأنه، كما تقرر سلفًا، حقل مازال في طور البناء والتشييد، ومن ثَمَّ لا نستطيع القطع بكل أهدافه التي يتغيّاها، غير أن ذلك لا يمنع من عرض بعض من هذه الأهداف استنبطت من عدد من الدراسات والبحوث، على قلّتها، التي حاولت، وما تزال، التأسيس لهذا الحقل المعرفي الجديد. ومن بين هذه الأهداف[٤٢]:

١- يهدف نقد النقد من المراجعة والمساءلة النقدية إلى تبيان قيمة المبادئ الفاعلة في الأعمال النقدية على نحو يؤدِّي إلى تعميقها واستكمال لوازمها وتوابعها، وإحكام إجراءاتها وأدواتها، وتدعيمها وتبريرها وإغناءها، ومن ثم تبنيها في الممارسات النقدية، أو كشف خلل هذه المبادئ وجمودها وتخلفها عن اللحاق بالمتغيرات المتسارعة المتلاحقة في الواقع الفعلي لسياقات الممارسة والتنظير، وعندئذ تغدو المراجعة كاشفة عن ضرورة تأسيس انقطاع معرفي يفصل بين مرحلة نقدية وأخرى، وبداية تيار واعد بالقياس إلى التيارات السائدة التي أصابها التكلس، مما يؤدي إلى نوع من الركود في الحياة النقدية، وتسلط كل رأي بما يعتقده.

٢- البحث عن الخصوصية والوضع الاعتباري للنقد ضمن أشكال الدراسات الأدبية وغير الأدبية.

٣- إنتاج وعي نظري جديد وجدي حول الموضوع أو المواضيع السابقة.

٤- التنظير للنقد الأدبي، وإيجاد نمذجة له أو عدة نماذج.

٥- إضاءة بعض الممارسات النقدية التي تشتغل في الظل، وكشف النقاب عنها، والتعريف بها وتأكيد مكانتها؛ إذ هناك مشاريع وتجارب نقدية لم تأخذ حظها من الاهتمام والدراسة.

٦- اكتشاف المستويات المتعددة التي تنطوي عليها النصوص النقدية، من ناحية، والاعتداد بأدوار العمليات والآليات التي يستخدمها الناقد في تحليل النصوص النقدية من ناحية ثانية.

٧- إكساب القارئ قدرات تحليلية متجددة تمكنه من التعامل مع الكتابات النقدية التي يتلقاها.

---

(٤٢) ينظر: جابر عصفور، نظريات معاصرة، ص ٢٩٦، جابر عصفور: «نقاد نجيب محفوظ، ملاحظات أولية»، ص١٦٨، محمد الدغمومي: نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، ص٥٢، محمد الدغمومي: «نقد النقد أسئلة المنهج»، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ١٨، الرباط، المغرب، ١٩٩١، ص ص٣٠٢-٣٠٨، سامي سليمان أحمد، حفريات نقدية، دراسات في نقد النقد العربي المعاصر، مركز الحضارة العربي، مصر، ط١، ٢٠٠٦ ص ص ٨-٩.